



-1-

يقول ولIAM (ول) دبورانت، صاحب الكتاب الموسوعي الكبير "قصة الحضارة" (الذي أمضى في كتابته أربعين عاماً، وقد تُرجم إلى العربية ونشر في اثنين وأربعين مجلداً): "تحذّاني أحدهم يوماً أنَّ الفَّحْص قصّة الحضارة في نصف ساعة، وقد فعلت ذلك في أقل من دقيقة. قلت: إنَّ الحضارة نهرٌ ذو ضفتين، يمتلئ أحياناً بدماء أنسٍ اقتلوا وقتلوا، وحاربوا وسرقوا وفعلوا الأشياء التي يسجلها التاريخ. أما الضفتان فيعيش عليهما أنسٌ لا يلاحظهم أحد، يبنون البيوت ويربون الأولاد ويشتغلون بالتجارة والصناعة والزراعة ويكتبون الكتب ويقرضون الشعر. إنَّ قصّة الحضارة هي قصّة ما يحدث على ضفَّتي النهر، لكنَّ المؤرخين يهتمون بالنهر وحده ويتجاهلون الضِّفاف".

-2-

صدق دبورانت وأجاد التعبير. في كتب التاريخ يُمنَح القادة العسكريون والسياسيون أدوارَ البطولة وتُسلط عليهم الأضواء، ويبدو مئات الملايين من عامة الناس مثل "الكومبارس"، دورهم هو تكميل العدد وملء الفراغ فحسب. إلا أنَّ الحقيقة مختلفة تماماً، إنَّ الملايين من أولئك الناس هم الذين يصنعون الأحداث في كل مكان وآن، والمحزن أنَّهم يحتملون المغارم ويذهب غيرهم بالمغارم. على مدى التاريخ المسجل للجنس البشري على ظهر الكوكب لم يشارك أولئك الناس بقرار الحكم وال الحرب إلا قليلاً، لكنَّهم دفعوا دائمًا الثمن الأكبر، فكانوا همَّ وقود الحروب وبنَيتَ بتضحياتهم ودمائهم الممالك والإمبراطوريات. هؤلاء هم صانعو التاريخ الحقيقيون، إنَّهم الناس العاديون.

الزراعُ الذين يزرعون ما نأكله، والصناعُ الذين يصنعون ما نستعمله، والبناؤون الذين يبنون بيتنا، والمعلمون والمعلمات

الذين يعلمون أولادنا، والممرضون والممرضات الذين يخفون آلامنا، والأطباء والطبيبات الذين يجتهدون في شفائنا، والعمال والفنيون والحرفيون الذين يسهلون حياتنا، وربات البيوت اللائي يفنين عمرانهن في رعاية البيوت وتربية الأجيال... هؤلاء هم المجتمع، هم الناس العاديون، هم الملابس التي تصنع أحداث التاريخ.

-3-

هؤلاء الناس العاديون هم الذين أفكروا فيهم وأكتبوا لهم وأدافعوا عن حقوقهم، لسبب بسيط، لأنني منهم، أنا وكل من أعرف وأعيش وأخالط من الناس. أنا لم أكن يوماً من النخبة ومن الخاصة ولن أكون في أي يوم، لم أكن من أهل الحل والعقد ولن أكون، لم أكن من أهل السياسة والرئاسة والقيادة والواجهة ولن أكون. ولأنني لن أكون أبداً، ولأنني سأبقى من الناس العاديين أبداً، ولأنني لا أريد أن أصبح صفرأً هملاً عندما أفاد من حيث لا أعلم إلى حيث لا أريد، ولأنني أرفض أن يتتحكم بمصيرهم ومصير أولادي من لا أرضي بهم حكاماً وقادة للمجتمع، من أجل ذلك فإنني أصرّ على أن يُمنح الناس العاديون الفرصة الكاملة لصناعة حاضرهم ومستقبلهم، الناس العاديون جميعاً من غير استثناء.

الناس العاديون يريدون حقوقهم السياسية، حقوقهم الإنسانية، يريدون أن يشاركون في إدارة مجتمعاتهم وفي سياسة بلدانهم، يريدون أن يكون لهم رأي في مؤسسة الحكم التي أثبتت التاريخ الطويل أنهم هم الذين يدفعون ثمن حماقات رجالها ويتحملون وزر أطماعهم وشهواتهم للمال والسلطان.

-4-

لقد أثبتت ثورات الربيع العربي، وفي مقدمتها الثورة السورية المباركة، أن الشعوب أوعى من النخب السياسية والعسكرية وأبصرت بمصالحها وأحرصت على حاضرها ومستقبلها. أثبتت أن كثيراً من صدّروا أو صدّروا أنفسهم لتمثيل الشعوب ليسوا سوى ثلاثة من الجهلة العاجزين، وأن كثيراً منهم متغرون يستغلون دماء الشعوب وتضحياتها للوصول إلى المال والجاه والسلطان، وأن كثيراً منهم مغامرون طائشون جعلوا الشعوب حقول تجارب لنظرياتهم الفاشلة.

هؤلاء الفشلة العَجَزَة المراهقون الطائشون هم الذين يحرصون على حرمان الشعوب من حقها في حكم أنفسها، ثم يحدثوننا عن أهل الحل والعقد الذين ينبغي أن نضع رقابنا في أيديهم، وقد رأينا نماذج خائبة لهم في الثورة السورية حملوا أسماء لامعة برقة وما هم بشيء. إن شرعوني الفصائل وقياداتها ومجالسها الشورية عينةٌ من "أهل الحل والعقد" بنظر الأقوياء الذين يحكمون المناطق المحررة الآن، ولو بقي الأمر في أيديهم فلن يتحكم في سوريا بعد النصر غيرُهم، وأشهد أنني لا أستأمنهم (أو أكثرَهم) على مصير مزرعة أو دكان فضلاً عن مصير شعب بلد.

-5-

إن الشوري هي الضمان لثلا يكون الحكم دولة بين الأقوياء كما أن الزكاة هي الضمان لثلا يكون المال دولة بين الأغنياء، وكما لا يجوز أن يتداول الأغنياء المال فيما بينهم ويُحرِم منه الفقراء أبداً الدهر، كذلك لا يجوز أن يتداول الأقوياء السلطة فيما بينهم ويُحرِم منها الضعفاء إلى آخر الزمان.

لا سبيل لكسر احتكار تداول المال إلا بالزكاة التي أوجبها الإسلام على الأغنياء رغم أنوفهم، ولا سبيل لكسر احتكار تداول السلطة إلا بالشوري التي أوجبها الإسلام على الأقوياء رغم أنوفهم. ولن يُكسر الاحتكار ونخلص من الأوليغاركية (تحكم الأقلية بالأكثرية) إلا بشوري تعم الناس، كل الناس. ولا شوري تعم الناس إلا بالانتخاب، الانتخاب العام الذي يشمل الراشدين من أهل البلد جميعاً، الأقوياء منهن والضعفاء والأغنياء والفقراء والرجال والنساء.

إن الإنسان يحب أن يدافع عن نفسه، وهو يكره أن يسلم نفسه للآخرين ليجعلوه مرقاة يرتفون عليها إلى الأعلى ويبقى هو في الحضيض، أو جسراً يعبرونه إلى أرض الورد والنعيم ويبقى هو في أرض الشوك والعذاب. من أجل ذلك أقاتل ليكون لي رأي في إدارة بلدي وحق في اختيار حكامي، ولأنني لا أرى نفسي أفضل من غيري من الناس عقلاً ورأياً وأمانةً فإنني أطلب لغيري ما طلبه لنفسي، وما قاتلت ليكون حقاً لي أقاتل ليكون حقاً لكل الناس.

الزلزال السوري

المصادر: